

سيباستيان كاستيليون، نصيحة إلى فرنسا المنكوبة، 1562 (ثلاثة مقاطع)

بخلاف كتابه "ضد شعار كالفن"، هذا النص تم نشره ولكن دون ذكر إسم الكاتب في العام 1562. في المرحلة التي كانت فيها المواجهات بين الكاثوليك (الغالبية) والبروتستانت (الأقلية) في فرنسا تأخذ منحى أكثر فأكثر عنيفاً، ولتصل إلى مرحلة من الحرب الأهلية التي نطلق عليها تسمية "حروب الأديان"، يقوم كاستيليون بتحليل مرض فرنسا ويخلص إلى نتيجة أن إكراه الضمائر هي في أساس هذا السوء. في المقطع الثاني، ومن بعد ان يلمح إلى ما نسميه اليوم القاعدة الذهبية، (لا تفعل لغيرك ما لا تريد ان يفعله لك)، يقول بسخرية ان يكون المرء مكرهاً على خيانة وجدانه هو لخطأ كبير أننا نفضل أحياناً الموت على ذلك. في النهاية، يستعيد كاستيليون في المقطع الثالث ما كان قد قاله في كتابه ضد شعار كالفن، ويطالب بأن لا يتم استعمال السلاح ضد الهراطقة

سبب المرض. أجد أن السبب الأساسي والفاعل لمرضك، أي للقسمه والحرب التي تفتك بك، هو حكماً إكراه الضمائر، وأظن أنك إذا فكرت جيداً، تجددين أن هذا هو السبب الحق. [...]

العلاجات الخاطئة: غير أن العلاج الذي يقوم أطفالك، يا فرنسا، بالبحث عنه، فإنه أولاً يمكن في التقاتل، والقتل، وقتل الواحد الآخر، والأسوأ من هذا، الذهاب لغزو أمم أجنبية بناسها وفستها، من أجل أن نصمد أكثر، أو لنقولها بشكل أفضل، من أجل ان ننتقم بشكل أفضل من أخوتنا. ثانيًا، إنه في إكراه كل منا لضمير الآخر.

هذه هي العلاجات التي يبحث عنها أبناؤك، أيتها الفقيرة فرنسا، والتي يظنون أنها يجب ان تكون هي العلاج، ولكنها بالعكس، إنها وسائل من أجل إفسادك وتدميرك بشكل كامل، أكان جسدياً ام روحياً. (ص 19-21)

تأملوا جيداً في هذه النقطة. إذا كانت هذه الحياة المليئة بالجهل والمشاعر الشهوانية التي غالباً ما تعمي التفاهم بين البشر، لكن هناك حقيقة لديها الكثير من الفعالية والتي تجبركم، اردتم ذلك أم لم تريدوا، أن تعترفوا بأنكم لا تفعلون لغيركم ما لا تريدون هو أن يفعله لكم، أو في يوم الدينونة، حيث كل الامور ستكون واضحة ومكشوفة ومحدثة؟ أولاً تعلمون أن الضمائر تنتهم أو تؤذن الكل في يوم الحساب؟ وهل تعلمون إذا ما كان الخطأ الذي فعلتموه لإخوتكم هو صغير؟ إنه صغير لدرجة أنهم فضلوا أن يطيلوا كل أخطاء توحشكم (وكذلك الذي في الحقيقة يجب ان أسميه)، التي اقترقتموها، وأن تقوموا (كما تجاهرون) بأمور ضد ضمائر أخوتكم، بما هو من إشارة إلى ان إكراه ضمير رجل لهو أسوأ أحياناً من أخذ حياته بشكل وحشي، لأن الإنسان الذي يخاف الله يفضل ان يقتل بوحشية على ان يسمح لأحد بإكراه ضميره على ما لا يريد وما لا يؤمن.

فلنأت إلى التجربة، وأنا أخذكم أنتم شهوداً على ما أقوال. لقد وجد ويوجد عددا من الإنجلييين الذين يريدون أن تذهبوا بالقوة لسماع عظاتهم، أسألهم، كيف يمكن ان يروق لكم هكذا نوع من العنف؟ أنتم ولا شك لا تستسيغون ذلك، وأنه يمارس عليكم خطأ كبيراً، وأن ضميركم لا يمكن ان يكون مجروحاً إذا سمعتم عظة هذا كجرح الإنجليي التي تجبرونه على سماع القديس. تعلموا من ضمائركم الخاصة ان لا تجبروا ضمير الآخر، وإن لم تكونوا تتحملون ان يمارس احدهم خطأ عليكم، فلا تمارسوا خطأ اكبر عليه. (ص 25)

هذه هي فقط الوسائل التي يمكن ان تقاوموا فيها الهراطقة: من خلال الكلمة، إن لم يستعمل إلا الكلمة، وبالسيف إذا استعمل هو السيف. إن كان خطأ ان يتم إعدام أحدهم بتهمة الهرطقة وهو ليس بهرطوق، فإن هذا الامر غير المناسب يصبح أكثر أذية إذا كانت نتيجة هذا الخطأ قتل احدهم. لأن الإعدام الظالم لا يؤدي إلا الجسد، وأحياناً هو لا يؤديه، لكن الموت هو خطأ غير قابل للتصحيح (ص 74).

المصدر: سيباستيان كاستيليون، نصائح إلى فرنسا المنكوبة، منشورات ماريوس فاخوف، جنيف، دروز، 1967 (نص مجد)